الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد

كيف ولماذا نعلن سقوط الفكر الغربي ؟

الحلقة الثانية

ليست هي المرة الأولى التي أعرّف فيها عن اعتقادي بضرورة التحرر من وصاية العقل الغربي وأساليبه في مواجهة قضايا الإنسان والكون والمعاني التي ترمز إليها.

لقد سبق لي في بداية عام ١٩٦٨ أن قلت هذا الرأي في أثناء ندوة عقدت في نادي رابطة الاجتماعيين في الكويت . ولم يدهشني أن بعض الذين استمعوا إليّ قد رفض وجهة نظري هذه واتهمني بسوء الفهم وأكد على أنني لم أعرف حقيقة التراث الغربي ولم أطّلع عليه.

ويا ليت أن الأمر قد وقف عند هذا الحد من الاعتراض بل تجاوزه واحد من المستمعين وهو طبيب من أطباء الأمراض العقلية فحاول أن يدافع عما سمّاه الجانب الروحي في الثقافة الغربية بما فيها الكتابات التي كتبها كارل ماركس والآداب التي نشأت عنها فيما بعد أو تأثرت بها. والأعجب في أمر الطبيب المعارض أنه رفض فكرة أن كارل ماركس قد حارب الأديان. وأنه ، أي كارل ماركس قد أسهم في خدمة قضايا الحرية والمحبة والسعي إلى المثل الكريمة إلخ ...

وطبيعي أنني لن أناقش في حلقتي اليوم وجهة نظر السيد الطبيب فإن لهذه المناقشة مكانها في غير هذه المناسبة .

وتباينت الانعكاسات الناجمة عن وجهة نظري فكانت هناك ردود سلبية إلى جانب المعارضة الإيجابية . وقد بدت هذه السلبية على صورة السخرية أو التنكيت الذي هو في حقيقته نصف استسلام للرأي الذي أبديته مع الجبن الذي يصاحب مثل هذا الاستسلام أمام كل جديد أو غريب من الرأي.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

المهم أنني خرجت من الندوة تلك وقد اكتشفت بعداً جديداً من أبعاد الوصاية الفكرية التي تمارسها الثقافة الغربية على عقول المثقفين من أبنائنا واخوتنا العرب. وهو كشف دفعني إلى مضاعفة المجهود من أجل تحقيق الرأي الذي ناديت به وألححت على ضرورة مناقشته.

وقبل أن أنتقل إلى وجه آخر من وجوه هذا الموضوع أذكر أن فئة ثالثة من فئات تلك الندوة قد نجحت إلى خطة للتسوية في أثناء مناقشة الرأي الذي أنكرت فيه أن تكون الثقافة الفلسفية العربية الإسلامية استمرارا للثقافة الفلسفية اليونانية. وقد ظن أصحاب خطة التسوية أنّ في وسعهم الخروج بها من حرج التناقض واكتشاف منفذ في الطريق الذي بدا مسدوداً أمام الجميع حين أصررت على وجهة نظري ودافعت عنها مستعينا بالوقائع التاريخية والتأمل في اتجاهات الفكر العربي.

وكما أنني رفضت المعارضة التي أنكرت عليّ دعوتي إلى التحرر من الوصاية الثقافية الغربية فقد رفضت أيضا خطة التسوية واعتبرت أن المنادين بالتسوية والمعترضين على طريقة التنكيت هم أقرب إليّ في ميزان التقييم الحقيقي لموقف كل الفرقاء . هذا مع العلم أن المعارضة التي لقيتها الفكرة تعود إلى أسباب ناجمة من طبيعة الظروف ومن أهمها:

١ – الغرابة التي اتسمت بها الدعوة.

٢ –جهل المعارضين بطبيعة الثقافة العربية الإسلامية.

٣ – الحماسة التي يتسم بها صاحب كل رأي وهي حماسة ناجمة عن مبدأ (القصور الذاتي) في كل حركة ذات إتجاه معين.

فليس من السهولة بمكان أن يقبل صاحب الرأي وجهة نظر تفسد عليه ما اعتاده من الموازين العقلية وما ألفه من محتويات الفكر والمواقف الفلسفية .

وقد حدث أنني بدأت أقرأ كتاب " مختصر دراسة في التاريخ " للمؤرخ الفيلسوف البريطاني أرنولد ثوينبي وبلغت الفصل الذي أعلن فيه رأيه في تعدّد الحضارات كل الحضارات أمام الحضارة الغربية مستشهداً على صحة رأيه بمعالم التغيير في الحضارة السوفياتية وجنوح هذه الأخيرة إلى التأثر العميق بالحضارة الغربية.

وطبيعي أن أرنولد توينبي يناقش مثل هذا الموضوع في ضوء تركيبه العقلي وعلى هدى من تجربته الخاصة التي يتصل بها نوع من الإحساس بالسيطرة الفكرية الغربية على التيارات الأخرى للفكر العالمي.

وهنا تكشّف لي أيضا بعدٌ جديد من أبعاد الحوار الفكري في العالم المعاصر وهو حوار يتم بطريقة لا يتوفر فيها التكافؤ. فبينما تتسلح الحضارة الغربية بأجهزة إعلامية بالغة القوة ، وبمكاسب تقنية أثارت الاندهاش عند مختلف الشعوب ، تبدو لي الفرص المتوفرة للكشف عن طبيعة التراث الذي يملكه كل شعب غير الشعوب الغربية ، قليلة ضئيلة حتى كاد العقل المثقف في العالم كله لايسمع غير صوت الفكر الغربي ولا يواجه غير الفن الغربي.

أما ما يقوله أرنولد توينبي عن جنوح الحضارة السوفياتية السابقة ، الى الاندماج التدريجي في محيط الحضارة الغربية فهو أمر لا يردّ علينا لأننا لا نشاركه الرأي في أن الحضارة السوفياتية السابقة كانت ذات جذور غريبة عن جذور الحضارة الغربية, فالحضارة السوفياتية السابقة ليست غير ثمرة من ثمرات العقل الغربي . نضيف إلى ذلك أن تحوّلات العقل الغربي قد ارتسمت في ثمانينات القرن العشرين في تيارين كبيرين لا اختلاف بينهما أبدا من حيث الجوهر والخطة والمنهج هما التياران الشيوعي السوفياتي والرأسمالي الأميركي. ولمناقشة هذا الموضوع مكانها الخاص في سلسلة هذه الحلقات أيضا .

المهم أن توينبي وأمثاله ممن لا يرون في التجربة الحضارية الفاعلة غير التفوق التقني أساسا عند الغرب هو الذي دفعهم إلى اتخاذ مثل هذا الموقف.

ولما كنت أدرك بطبيعة التأملات التي أتمرس بها أن التجربة العربية الإسلامية ذات أبعاد ومواقف تتباين تبايناً تاماً عن الأبعاد والمواقف الأساسية في الثقافة الغربية فقد نما إحساسي بضرورة الإلحاح على توضيح رأي في التحرر من وصاية الثقافة الغربية وإعلان سقوطها في عقول الأجيال العربية الإسلامية الجديدة.

ومضت فترة أخرى وجّهت على أثرها دعوة للاستماع إلى إحدى محاضرات المستشرق الأستاذ جاك بيرك .

وكانت مناسبة فريدة أتاحت لي العودة إلى الموضوع الذي بدأ يشغل بعض العقول النيرة في عالمنا العربي الإسلامي. موضوع العلاقة القائمة بين العقل العربي ومحتوياته الثقافية وطرائقه في مواجهة قضايا الإنسان والكون من ناحية وبين العقل الغربي ومحتوياته الثقافية وطرائقه في مواجهة قضايا الإنسان والكون من ناحية أخرى.

وشعرت مرة أخرى من خلال الجو الفكري المستسلم أمام آراء المستشرق الفرنسي وطريقته في مواجهة قضايا الإنسان والكون عبر الإنسان العربي بخاصة، أنني أمام المسألة ذاتها التي أثرتها من قبل. مسألة إعلان سقوط الفكر الغربي في عقول الناشئين العرب.

ولا غرابة في أن ترتد إليّ الرغبة في توضيح أبعاد المسألة وتحليلها والتعرض لظروفها المختلفة فهي مسألة مصيرية بالنسبة إلينا نحن العرب الذين يفترض فينا، في ضوء الدور الذي أنيطت إليها مهمة القيام به عبر التاريخ، أن نسترد المبادرة ، وأن نحقق ذاتنا بحيث تكون لنا تجربتنا الخاصة في تعيين الطريقة التي نواجه بها قضايا الإنسان العربي بخاصة.

الجو النفسي الذي كنت أسبح فيه خلال المحاضرة التي عجزت عن تبيين نصوصها واضحة بسبب من رداءة الأجهزة الإذاعية دفعني إلى الاستماع إليها من بعد على الشريط الذي سجلت عليه. ولم يدهشني أن المستشرق الفرنسي قد واجه مشكلتي الحرية والوحدة الحضارية في العالم بالطريقة التي يواجه بها علماء الغرب كل المشكلات الإنسانية . أي بالعقل المادي الخالص رغم الاستدراكات التي سجلها في أثناء المحاضرة.

خلاصة رأي المحاضر أنه يؤمن بأن الحرية ومن ثم وحدة الحضارة في العالم ستتحققان بفضل عاملين اثنين أساسيين:

١ – ظهور عصر التحرر من الامبراطوريات الاستعمارية التي سادت خلال القرن التاسع عشر وقد أطلق على ظاهرة التحرر هذه المصطلح الفرنسي .

٢ – ظهور الميكنة . وهي تحول الإنتاج الصناعي إلى إنتاج ذاتي متحرر إلى أبعد الحدود الممكنة من تدخل اليد العاملة . وهو يقصد بها بالطبع ظهور المصانع الأوتوماتيكية.

بمثل هذا العصر الذي تناول به مشكلة الحرية ومن ثم مشكلة الوحدة الحضارية في العالم بدت لنا العقلية الغربية الوصية التي تصرّ على مواجهة مشكلاتنا كمجموعة من البشر بالمنطق المادي والعقلية الموضوعية كما يحلو لبعضهم أن يسمي هذا المنطق بالذات . لكأن البشر في رأي هؤلاء الغربيين في المواقف التي يختارون والاتجاهات التي يحدّدونها لأنفسهم هم أشبه بالسلعة التي توضع مقاساتها مسبقا من قبل خطوط المهندس الصناعي أولا ثم من قبل المصنع الذي يصنع الآلات المنتجة.

وما هو الفرق بين أن يقول الماركسيون : أن الظاهرات النفسية هي ظاهرات متحولة عن الواقع المادي. وكما يقول الماديون بعامة : أن الفكر هو إفراز الدماغ البشري ، وبين العاملين الماديين اللذين جعل منهما جال بيرك مصدراً تتعين به مصائر الحرية ووحدة الحضارة البشرية؟

العقلية هي لا تتغير ولا تتبدل . إنها تلك التي لا تعنى إلا بالعامل المادي البحت ولا ترى فيما نسميه النوعية أو الكيفية غير تحول عن التراكم المادي.

وليس عجيباً أن تترسخ هذه العقلية في نفوس الغربيين دون استثناء وهم الذين عانوا مأساة الرجعية الرهيبة التي كانت تختبىء اغراضها المادية وسياساتها المتسلطة وخططها العدوانية وراء فيض من الأساطير والخرافات المتلفقة بعناوين الروح وأزياء التدين والطقوس المفرغة من الوعي الإلهي العميق.

لقد اعتقد الغربيون وهو الذين لم يروا في تراثهم الديني غير الكهانة ونظمها المعقدة وبهارجها وأزيائها وطبقاتها وامتيازاتها الاجتماعية، أن المعنى الإلهي هو هذا الذي عاينوه في واقع الكهانة بالإضافة إلى المعوقات التي طرحت أمامهم من قبل أصحاب هذا النظام الديني. لقد وجدوا أنفسهم في صميم معركة تناقض فيها الواقع الحي مع الفكر التقليدي والاعتبارات والقيم الأخلاقية المعترف بها رسميا من قبل المؤسسات القائمة . هذا التناقض لم يقف طرفا، عند الحوار البريء والخلاف الذي يعتبر المناقشة الفكرية سلاحاً وحيداً للوصول إلى الحقيقة ، فلم يلبث حتى سالت به الدماء في محاولة هستيرية من قبل الأسطورة والخرافة وخطة الرفض للواقع الحي لتدعيم ذواتها وتحطيم بوادر النهضة الجديدة.

وقد دفع الغربيون ثمناً كبيراً لتحقيق المكاسب التي ارتفعت بها من بعد قواعد حضارتهم الحديثة. لقد كان اعتقال العلماء والمخالفين عن النظريات الرسمية حتى في أدق الدقائق وأقل التفاصيل شأنا هو المكافأة التي يكافأ بها هؤلاء . وكانت المحارق ومحاكم التفتيش عناوين أخرى على خطة الإبادة المرعبة التي التزمتها المؤسسات التقليدية الرسمية . وكانت محاكم التفتيش بالذات موجهة ضد المخالفين من الغربيين أنفسهم عن الموقف الرسمي كما كانت موجهة ضد العناصر العربية الإسلامية في بلاد الأندلس .. وانتشرت محاكم التفتيش فأصبحت السلاح الذي تتسلح به الثقافة الاسطورية والرجعية الاجتماعية تحت تزاويق براقة وعناوين ذات طابع ديني مزعوم.

ولا شك أن المعارضة الهستيرية التي أعلنتها الأسطورية الكهونوتية في تلك الأزمنة البعيدة كانت ناجمة عن موقف خاطىء صنعته بدورها الحضارة اليونانية اللاتينية في الأساس ثم انسحب هذا الموقف إلى ما وراء الأزمنة التي اختفت فيها معالم هذه الحضارة بالذات.

إذا كان غاليليو العالم الطبيعي قد رفض كل المقاييس غير المقياس المادي للأشياء والأحياء والوقائع فلأن هذا الرفض هو الرد السلبي المتطرف لجنوح العقلية الأسطورية الرجعية التي ألجأته اليه.

ولم يكن في وسع غاليليو أو أي عالم آخر من العلماء المعاصرين له أو المتابعين له من بعد حتى فرنسيس باكون الإنجليزي أن يدركوا خطورة الرفض المطلق الذي اتخذوه تجاه التيار الأسطوري القديم ذلك لأن الخلفية العقلية والنفسية والاجتماعية والدينية التي كانت تكمن في واعيتهم الباطنية تفرض عليهم مثل هذا الموقف السلبي.

فالمقياس المادي الذي تبنّته هذه العقول والذي بدا في النهضة الحديثة وكأنه الميزان الوحيد لصانعي الحضارة الغربية قد فرض نفسه بطبيعة الأشياء وفي ضوء التراث الثقافي الذي ورثته الأجيال الجديدة المتلاحقة.

ونحن لا يدهشنا أن نشهد هذه المسرحية الدامية التي رافقتها قسوة التعصّب العنيف وخطط الاضطهاد الديني .. ذلك أن الأسطورة لا يمكن أن يعقبها كرد فعل تحرري غير النزعة المادية التي تتميز بالمهارة والدقة , وتحول دون إرتفاع أصحاب هذه العقول إلى مستوى الوعي الشفاف الذي هو عملية تفوق على ميكانيكية العقل وعنوان على حدوث رؤية يتحقق بها السلام النفسي والاتصال الروحي السليم بالحضور الإلهي والوحدانية الإلهية.

وقد أدرك بعض المتأخرين من المفكرين العلماء هذه الظاهرة الخاصة بالعقلية الغربية ، وتبين أبعاد المأساة التي أحدثت غربة الوعي عن العقل الغربي . وفي مقدمة هؤلاء المفكرين العلماء يأتي ألكسي كايل حين قال في ص (٣١٦) من كتابه " الإنسان ذلك المجهول " تعريب شفيق أسعد فريد – إصدار منشورات مؤسسة المعارف في بيروت، ما يلي :

" إننا لا نستطيع تجديد أنفسنا وبيئتنا قبل أن نغير عاداتنا في التفكير .. لقد عانى المجتمع العصري ، منذ نشأ ، من خطأ عقلي – خطأ ما زال يتكرر باستمرار منذ عصر النهضة.. لقد كوّنت التكنولوجيا الإنسان ، لا تبعاً لروح العلم ولكن تبعاً لآراء ميتافيزيقية . وها قد حان الوقت لكي نتخلى عن هذه المذاهب. يجب أن نحطم الحواجز التي

أنشئت بين أجزاء المواد الصلبة وبين الجوانب المختلفة لأنفسنا. فإن الغلطة المسؤولة عما نعانيه إنما جاءت من ترجمة فكرة لطيفة لجاليليو .. فقد فصل جاليليو، كما هو معروف جيدا ، الصفات الأولية للأشياء ، وهي الأبعاد والوزن التي يمكن قياسها بسهولة ، عن صفاتها الثانوية وهي الشكل واللون والرائحة التي لا يمكن قياسها. ففصل الكم عن النوع . ولقد جلب الكم ، المعبر باللغة الحسابية ، العلم للإنسانية ، بينما أهمل النوع .. ثم يمضي فيقول: ولقد ازدادت التفرقة بين الكم والنوع اتساعاً عندما أنشأ ديكارت مذهب ثنائية الجسم والروح. وعندئذ أصبحت ظواهر العقل غير مفهومة أو قابلة للإيضاح . إذ عزلت المادة نهائيا عن الروح .. وينتهي أخيرا إلى تقرير الملاحظة التالية في نهاية ص : ٣١٧ فيقول : " ولسوف يكون من الصعب أن نتخلص من مذهب ظل يسيطر ، خلال أكثر من ثلاثمائة عام ، على عقول القوم المتحضرين ، لأن السواد الأعظم من رجال العلم يؤمن بحقيقة الكونيات ، والحق الخاص لبقاء الكم ، وسيادة المادة ، والفصل بين العقل والجسم ، والمركز الثانوي للعقل. وهم لن يتخلوا عن هذا الإيمان بسهولة لأن مثل هذا التغيير سيهز فن التعليم والصحة والسيكولوجيا وعلم الاجتماع هزا عنيفاً من أساسها ".

ويمضي ألكسي كاريل في تبديد أوهام المعرفة الناشئة عن المنهجية المادية الموضوعية التي اعتبرتها الثقافة الغربية وسيلة وحيدة للوصول إلى الحقائق وكشف عن ظاهرات التداخل بين الوقائع المادية والروحية وما بينها من مفاعلات متبادلة.

ولئن شجب المنهج المادي الذي بنيت المعارف الغربية في ضوئه فهو لم يكن أقل حماسة في شجب المنهج الروحي الخالص الذي يعتبره رد فعل لفشل المادية ويقرر أن زعامة السيكولوجيا المتفردة لا تقل خطراً عن زعامة العقلية المادية المتفردة أيضا . ثم يعلن في ص ٣١٩ " وإنما سوف يوجد الخلاص فقط في التنحي عن جميع المذاهب ، وفي القبول التام لمعلومات الملاحظة ، وإدراك الحقيقة القائلة بأن الإنسان لا يقل ولا يزيد عن هذه المعلومات "..

ونحن هنا لن نسير مع المنطق الذي اتخذه المؤلف حتى النهاية بل نكتفي بتقرير ما قرره من أن الخطأ المهم في خطة البحث عن المعرفة الغربية هو في اعتبار الوجود كله بما فيه الوجود الإنساني، وجودا ماديا وحسب, فهو بذلك يعلن بالإضافة إلى العلوم التي ذكرها من قبل فشل العلوم التالية : " الرياضيات – الطبيعة – الكيمياء – الدين – الأخلاق أو الوظائف الأدبية ثم الوظائف الجمالية ، والتربية والتعليم والاقتصاد إلخ ...

ومن الضروري أن نفهم معنى الفشل في هذه العلوم . وأنه ذاك الذي نلاحظ آثاره في صياغة الإنسان الجديد عن طريق هذه العلوم, فالاقتصاد مثلاً لم يستطع أن يتغلب نهائياً على الأزمات الاقتصادية التي تأخذ بمخنق البشرية في فترات دورية متتابعة. والدين في منطق الغربي لم يحقق أي نجاح في تعميق الحس الإلهي عند الإنسان, والتربية التعليمية لم ترفع نسبة الذكاء ولم تزد عدد أفراد النخبة نسبياً في العالم بل العكس هو الصحيح ... ولنقل مثل ذلك في العلوم الأخرى.

هكذا نتبين أن البداية الخاطئة لا بد وأن تحدث نهاية أكثر خطأ ... وقد ظهر هذا الخطأ في جملة من ميادين البحث والتأمل وعلى مستويات مختلفة ولعل من الأفضل أن نعود إلى هذه البداية القديمة فنحاول تسليط الضوء على الوقائع التي اتفق عليها المؤرخون لنتعرّف إلى الفوارق الأساسية التي تميز الفكر الغربي على امتداد موكبه الحضاري في قرون كثيرة متتابعة .